مجلة كلية الآداب

تحـــولات ما بعـــد الحداثـــة
فى
فكر ليـوتار

" The Postmodern Turns on Lyotard Thought "

إعـداد

د. مسعد عطيه أحمد

أستاذ مساعد
الفلسفة الحديثة والمعاصرة

قسم الفلسفة
آداب – بنهـا

العدد الحادي عشر يوليو ٢٠٠٤

مقدمـــــــــة البحـــث

إن تجـــدد الفكر أمر تقتضيه تطورات وتغيرات الحياة الإنسانية ، بكل تشـــكلاتها وتناقضـــاتها ، وهـــو مبدأ سامٍ لكل من البحث الفلسفي والبحث العلمـــي، رغـــم كونهما يسيران في خطين متوازيين لا يلتقيان ، يهدف إلى تحقيق تقدم المعرفة ، وارتقاء الإنسان في علومه وفنونه ، وآدابه ، وثقافته ، موائمة لتلك التطورات والتغيرات الحياتية .

مـــن ثـــم نهضـــت بعـــض الفلسفات المعاصرة كالتحليلية والبنيوية والنقدية، والحداثة والتفكيكية وما بعد الحداثة ، وغيرها ، لتبرهن أن الفلسفة لا يمكن أن تثبت حول قضية واحدة أو موضوع واحد ، أو مصطلح واحد ، أو مـــنظور واحد ، بل هي متجددة وفق الظروف المحيطة بالإنسان ، ووفق ماهيتها التي تؤكد بأنها إدراك ودراسة لجوهر الأشياء والمعارف والقضايا ، وبحث في علاقة الذات بالموضوع، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، يقدم الباحث محاولة فلسفية تستهدف تحليل ودراسة فكر ما بعد الحداثة ممثلاً في أحد روادها هو الفيلسوف الفرنسي "جان فرانسوا ليوتار"[1]

بـــدأ الـــباحث دراسته تجاه هذا التيار بتساؤلات عديدة كافتراضات إشـــكالية للبحث : هل يُعد تيار ما بعد الحداثة تيار فكرى مستقبلي أم مجرد تغاير مع المذاهب والتيارات السابقة فقط ؟

---

1) لـــيوتار (جـــان فرانســـوا) Lyotard (Jean Francois) : ولـــد بمدينة فرساى Versailles بفرنساعام 1924 ، تعلم فى باريس ، ودرس الفلسفة ، كان معلماً وسياسياً ، فى المدارس الفرنسية ، ثم عضواً بهيئة التدريس بجامعات فرنسا (السربون – نانتار) . تـــدرج فى الدرجات العلمية إلى أن صار أستاذاً . قام بالتدريس بالجامعات الأمريكية مثل جامعـــة كاليفورنـــيا وجون هوبكنز ، جامعة سان دييجو ، ودرّس أيضاً ببعض الجامعات الألمانية . أحيل للتقاعد عام 1987 إلى أن توفى عام 1998م .

- مـــاذا يرمـــى "لـــيوتار" Lyotard أو مـــا هو هدفه من تقريره عن وضع المعرفة ؟

- هـــل أحـــدث " لـــيوتار " تحولات جوهرية في الفلسفة نتيجة ثورته على الحداثة ؟

- هـــل يمكـــن اعتـــبار تيار ما بعد الحداثة انفتاح على الفكر والثقافة نتيجة التطورات التكنولوجية والعلمية الهائلة فى العصر الحاضر ؟

- ما هو نوع الخطاب الذي إرتآه "ليوتار" فى تحقيق معرفة حقيقية وصحيحة ؟ لماذا الجليل فى الفن دون الجميل ؟

هـــذه التســـاؤلات وغيرها ، حاول الباحث الإجابة عليها من خلال دراسته ليؤكد – مرة ثانية – على أن الفلسفة لا تقبع فى برج عاجى وليست مجرد تمثلات ونماذج صنمية لا تتواءم مع حياة الإنسان ، كما أنها لا يمكن لأن تحقـــق ذاتها بدون إثبات ، ومن ثم فإن واقعها يقر بأنها ليست فقط بناء

مـــن أهـــم مـــؤلفاته:1- الخطاب ، الشكل (رسالة دكتوراه) : Discourse – Figuer 1971

2- الانحـــراف بعـــيداً عـــن ماركس وفرويد Derive a partir de Marx et Freud . 1973

3- الاقتصاد الليبيدى Libiden Economy 1974 .

4- الأصول أو المبادئ الوثنية Rudiments Paeans 1977 .

5- لعبة عادلة Just Gaming 1979 .

6- الوضع ما بعد الحداثى The Postmodern Condition 1979 .

7- الحماســـة (النقد الكانطى للتاريخ) L'esthousiasme 1982/1981 .

8- الاختلاف The Defferend 1983 .

9- تفسير ما بعد الحداثة The Postmodern Explaine 1986 .

لمذاهب فلسفية أو تيارات متغايرة ، بل ترمى إلى تحقيق هدف سامٍ ألا وهو تحقيق وحدة المعرفة رغم تعددها، ووحدة الإنسانية رغم اختلافاتها .

أمـــا عـــن المـــنهج الذي اتبعته فى هذه الدراسة فقد التزمت المنهج التحليلي النقدي، وتناولت هذه المحاولة الفلسفية فى مقدمة وفصلين وخاتمة .

المقدمة : عرض لإشكاليات البحث ومنهج الباحث .

الفصل الأول : الاتجاهات المعاصرة ومنطلقات ما بعد الحداثة :

وتضمنت بعض الاتجاهات المعاصرة ، منها :

1- الحداثة كماهية ومضمون

2- التفكيك وأثره في تكوين ما بعد الحداثة .

3- ما بعد الحداثة وكيفية تحديدها كمصطلح وكتيار فكرى .

الفصل الثانى : ليوتـــار ومستقبـــل المعرفـــة .

وتركـــــز حول :

1- مشروعية المعرفة ودور العلم والبحث العلمي .

2- تحول الفن من الجميل إلى الجليل .

خاتمـــة البحث : وتضمنت رؤية الباحث تجاه تيار ما بعد الحداثة ، والنتائج التي توصل إليها ، فمنها الإيجابية ومنها السلبية .

الباحـــث

الفصل الأول

الاتجاهات المعاصرة ومنطلقات ما بعد الحداثة

الاتجاهات المعاصرة متعددة ولها وجهات نظر متباينة أو متباعدة أو مستقاربة ، فمنها ما انصب على دراسة بنية اللغة ، ومنها ما اتجه إلى بنية الفرد والمجتمع ودراسته ، ومنها ما عكف على تفكيك تلك المذاهب التي تناولت اللغة والذات والموضوع ، منها ما اتسم بشمولية الفكر ومنها ما رفضه قاصداً تعدديته. فالاتجاهات المعاصرة – كما ذكرت – عديدة ، ساعدت في مجملها على ظهور تيار ما بعد الحداثة Postmodernism، فالنظرية النقدية Critical Theory كانت بمثابة قوة دفع في اتخاذ النقد Critique محور ارتكاز وانطلاق لتفكيك المذاهب الكبرى ، والتشكيك في أسلوب وطريقة معالجتها لقضايا العلم والمعرفة. وقد تأثر "ليوتار" – موضع البحث – بالنظرية النقدية ومدرسة فرانكفورت Frankfurt School وهو ما يستنبطه الباحث من رؤية "ليوتار" لما بعد الحداثة ، أما اتجاه الحداثة Modernism أو حركة الحداثة فيعد قوة تحول لتيار ما بعد الحداثة من مفهوم العقلانية المجردة ، والشمولية إلى مفاهيم تكنولوجيا المعلومات وبنوك المعرفة ، والتعددية الفكرية . إلى جانب ذلك كان تأثير تيار التفكيك دافعاً قوياً لتيار ما بعد الحداثة في استخدام أسلوب الاختلاف والتناقض والتشكيك في المذاهب السابقة وعلى وجه الخصوص " اتجاه الحداثة " .

وسوف يتناول الباحث في هذا الفصل بعض من تلك الاتجاهات كمنطلقات أساسية لتيار ما بعد الحداثة ، هي الحداثة ، والتفكيك ، ثم يتناول ماهية ما بعد الحداثة ودورها فى كيفية إحداث تطوير أو نقلة في الفكر الفلسفي المعاصر .

أولاً : الحداثة كماهية ومضمون

تـــناول الفلاســـفة والمفكرون المحدثون والمعاصرون مفهوم الحداثة Modernism طـــوال مـــا يقرب من أربعة قرون ، أى منذ القرن السادس عشر حتى ستينيات القرن العشرين ، وذلك بأساليب متعددة قد تكون متقاربة فيما بينها تقوم على مبادئ عقلية وكلية . ويذهب كينج King إلى أن " أول استخدام للفظ الحديث " كان فى عام 1585م ، و "حداثى" Modernist عام 1588م ، وظهر لفظ "حداثة" Modernity بمعنى المصدر من لفظ "حديث " عـــام 1627م، وبـــدأ اســـتخدام ألفـــاظ Modernizer ، Modernize ، Modernness ، Modernism ، فـــى النصف الأول من القرن 18 ، أما لفـــظ Modernization بمعنى التحديث أو التوفيق مع الفكر الحديث فظهر عام 1770) [1] هذا من ناحية بداية المفهوم ، أما عن تعريفه وماهيته ، فقد تعـــدد وتـــنوع ، فيرى آلان تورين Alain Touraine " ان الحداثة ليست مجرد تغيير أو تتابع أحداث : إنها انتشار لمنتجات النشاط العقلي ، العلمية ، التكنولوجـــية ، والإداريـــة . فهى تتضمن عملية التمييز المتنامي لعديد من قطاعـــات الحـــياة الاجتماعية ، السياسية والاقتصادية والحياة العائلية والدين والفن على وجه الخصوص ...) [2]

ومـــن المعلوم أن العقل Reason هو الأساس والعنصر الأولى فى تشكيل حداثيات الفكر الغربي في نظم الاقتصاد والسياسة أو الفنون والآداب

---

[1] فيدرســـتون (مايـــك) وآخرون : محدثات العولمة - ترجمة / عبد الوهاب علوب - مراجعة وتقديم / د. جابـــر عصـــفور - القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومى للترجمة - 2000 - العدد 93 - ص.ص 143-144 .

(2) تـــورين (آلان) : نقد الحداثة - ترجمة / أنور مغيث - القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة -1997 - العدد 38- ص 29 .

أو العلـــوم ، إلـــى جانب العقائد الدينية ، ومما يؤكد أهمية ودور العقل كأداة محـــركة وفاعلـــة فـــى التحسين والتقدم " أنه لا ينبغي أن يكون هناك هدف للسياســـات الاجتماعـــية للتحديث سوى إخلاء الطريق للعقل : بإلغاء اللوائح وقوانـــين الحمايـــة الخاصة بالطوائف المهنية والعوائق الجمركية ، وبتوفير الأمان ، وإمكانيات التنبؤ التي يحتاجها صاحب المشروع وبتأهيل الإداريين والفنيين الواعين والأكفاء " [1]

ويعـــرف برادبـــرى Bradbury الحداثـــة " بأنها حركة ترقى إلى الـــتجديد ودراسة النفس البشرية من الداخل معتمدة فى ذلك على وسائل فنية جديدة " [2] وينطلق هذا التعريف من منظور فني ، بمعنى أن الحداثة نابعة مـــن الفـــن المعبر عن الذات باستخدام التكنولوجيات الحديثة كوسائل جديدة تكشف عن القيم الإنسانية " فالحداثة أدب التكنولوجيا ، إنها الفن المتأنى من عـــدم الاعتراف بالأمور الواقعية التقليدية ... إنها الفن الذي حول الواقع إلى خـــيال نسبى ، إنها فن التحديث ، إنها فن اللافن الذي يحطم الأطر التقليدية ويتبنى رغبات الإنسان الفوضوية التي لا يحدها حد ، إنها ليست فن الحرية، بل فن الضرورة ... " [3]

---

[1] المرجع السابق – ص 31 .

[2] برادبـــرى (مالكوم) : الحداثة – ترجمة / مؤيد فوزى حسن – حلب – مركز الإنماء الحضارى للدراسات والترجمة والنشر – 1995 – ط 2 – ص 26 .

[3] نفس المرجع السابق : ص 27 .

مـــن هـــذا المنظور تأكيد على ضرورة تحديث المجتمع الغربي في نطاق التمسك بالقواعد والأبنية المحددة للفن وللحرية وللخيال ، وللواقع بوجه عـــام . إن لفظ " الحديث " يختلف فى مفهومه عن مصطلح الحداثة ، فى أن الحـــديث " لفظ يميز بين الحاضر وبين الماضي . أي بعد الميلاد المسيحى والرومانى الوثنى ... إنه نقلة من القديم إلى الجديد " [1]

كما أن (الحديث Modern مرادف بدرجة تزيد أو تنقص – لتعبير " الآن" أواخر القرن 16 ... انه حالة من التغيير ربما إلى الأفضل) [2]

إذاً " فالحديث "مرتبط تماماً بالحاضر فى الزمان والمكان وهو تحول من حالة بائدة إلى حالة مستحدثة سواءً فى التيارات الدينية أو الفلسفية أو العلمية .

أمـــا الحداثة فهي تعارض ومواجهة لكل ما هو كلاسيكي ، وهنا لا تعـــد تحـــولاً أو نقلة بل هي تغيير مناوئ لتيارات ونزعات فكرية وفلسفية وعلمـــية ودينـــية سابقة أو حاضرة ، إنها نقد لما هو قديم ولما هو حاضر ، يهـــدف إلـــى انبثاق إبداعات وتجليات فنية وعلمية وأدبية _ أعنى " في فن العمارة والفلسفة والعلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية وعلم النفس " [3] إلا أن – الـــباحث لا يعنى هنا أن الحداثة تأصيل للتراث أو إعادة له فى ثوب جديد ، بـــل هـــي تـــيار يبحث فيما هو أعم وأشمل من ذلك لأنه فى أساسه يرفض الماضـــي بتقاليده وتياراته ونزعاته . لقد تعددت تعريفات الحداثة ، وتنوعت دلالاتها وسماتها ، ويمكننا إيجاز **أهم خصائص الحداثة وما تميزت به :**

(*) Habermas (J.) : Modernity Versus Postmodernity – Trans. By Ben Seyla
Habib – State University of New York Press – 1993 – P. 92 .

(1) ويليامـــز (رايمـــوند) : طرائق الحداثة – ترجمة / فاروق عبد القادر – الكويت – عالم المعرفة – 1999 م – العدد 246 – ص 52 .

(*) Encyclopedia of Philosophy – Supplement Macmillan – New York –1996–P 353 .

1- أنها حركة ثقافية شاملة لكل مجالات المعرفة .

2- أنهـا تؤمن بالعقل وإنجازاته فى العلم والتكنولوجيا والفن وكل مجالات الحياة .

3- أن الحداثة ترفض الميتافيزيقا وتنقد المعتقدات الدينية وترفض اللجوء إلى تعاليم الكنيسة والوحي ، ومن ثم ظهرت العلمانية Separotism كتعبير عن انشقاق أو انفصال الدين والعقيدة الدينية عن المشاركة في السلطة الدنيوية أو النظام السياسي للدولة ، وكذا انفصال الأخلاق عن التفكير العلمي .

4- تتسـم الحداثة بانتقائها للمعرفة العلمية وتساميها على كل أنواع المعرفة ومن ثم لا تهتم بالمعرفة الميتافيزيقية والمثالية ، والتاريخية .

5- أنهـا تؤكد على أن كل فن أو علم لابد أن تكون له قواعده المحددة لأسسه الثابـتة التـي يسـتطيع العالم أو الفنان أو الأديب من خلالها الالتزام بها في أبحاثهم وإبداعاتهم

6- أن الحداثـة كحركة ثقافية وفلسفية انبثقت من نظم شمولية كلية فى الفلسفة والسياسة والفـن ، فكانـت المثالية الألمانية المطلقة عند هيجل Hegel (1770 – 1831) واهتمامه بوحدة الفكر وكليته ، رغم تناقضات وصراعات الفكر ، فهو لا يمكـن الاستمرار فى صراع وتناقض لا نهائى ، بل لابد له من وحدة شاملة مـركبة تجمع تلك التناقضات فى أسلوب يصل منه إلى عدم التناقض ، وقد انعكس ذلـك علـى رؤيـة " هـيجل " في الفلسفة والتاريخ والفن ، إلى جانب تلك المثالية الهيجلية ، تبرز المادية التاريخية أو الجدلية، عند ماركس Marx .

إلـــى جانب تلك السمات يمكن استعراض ما أوضحه " إيهاب حسن " * – في كـــتابه" تحول ما بعد الحداثة " – من سمات خصائص الحداثة ، نذكر منها " الشكل المغلق – وجود الهدف – التصميم والبناء – الاكتمال الفنى – الخلق – المركـــزية– الحضور – الانتقاء وتوظيف الاستعارة – التأويل ... " (١) وقد حلل كل خاصية على حدة في مؤلفه .

إن الحداثـــة كتيار فكرى وثقافي كان له رد فعل عميق وواضح في أوساط الفكر الفلسفي والفنى والأدبي ، فظهرت البنيوية ، وما بعد البنيوية ، والتفكيكية ، وما بعد الحداثة ، وظهرت كتيارات أو حركات مغايرة للحداثة .

إلا أن هـــذا – كمـــا يعـــتقد الـــباحث – هو روح الفكر وجوهره فى التواصل والاستمرارية ما بقى الإنسان حياً .

---

* إيهـــاب حســـن : ناقـــد وفيلســـوف أمريكي ، ومصري الأصل ، أستاذ الأدب الأمريكـــي – ولـــد في القاهرة عام 1925 – تخرج من كلية الهندسة – جامعة القاهرة فى يونيو 1946 ، هاجر إلى = الولايات المتحدة الأمريكية بعد تخرجه بشـــهرين من نفس العام ، ويعد من المفكرين البارزين الذين أسسوا فكر ما بعد الحداثة ، من مؤلفاته :

1– الخروج من مصر . 2– التحريـــر (مقـــالات جديـــدة عـــن الإنسانيات فى الثورة) 1971 .

3– تجريدات Abstractions 1975 .

4– الثقافة ، اللاحتمية ، والذاتية 1978 .

5– الرغبة والمعارضة فى زمن ما بعد الحداثة 1983 .

6– إيهاب حسن وسالى حسن : الابتكار والإصلاح 1983 .

7– ما وراء المذاهب النقدية Paracriticisms 1984 .

8– تحول ما بعد الحداثة 1987 .

(١) Hassan (E.) : The Postmodern Turn – Ohio State – University Press –1987 P.P. 91 - 92 .

ثانياً : التفكيك وأثره فى تكوين ما بعد الحداثة

التفكيك – كما أعتقد – ممارسة عملية ترفض كل فكر تقليدى قديم أو مـــوروث ، مـــن ثم فهو يتبع خطة أو استراتيجية تمثل أسلوب قابل للتعديل والتغيير وفق ما يراه المثقف الواعى . إنه ينم عن الشك والاختلاف ليس من أجـــل إعادة بناء نظرية أو تشكيل مذهب جديد ، بل فقط يسعى لإعمال عقل القارئ كمثقف حر مبدع يمكنه مشاركة أو محايثة الأفكار وإعطاء مدلولاتها الحقيقـــية وإدراك المعنـــى الجوهـــرى لهـــا . فينتقل من مجرد كونه متلقى للمعارف والأفكار إلى دارس وباحث وفاحص له رؤيته ووجهة نظره . ومما يـــؤكد ذلك ما يقوله جاك دريدا Derrida : " نعرف أن التفكيك يتحول ، إن عـــاجلاً أو آجـــلاً ، إلى كل قراءة نقدية أو تركيبية نظرية . حينما يتم اتخاذ قـــرار ، تظهر السلطة ، حينما تعمل النظرية أو النقد عندئذ يشكك التفكيك ، بمجـــرد أن يفعـــل ذلـــك يصبح مخرباً ... وفى نهاية الأمر يحقق التفكيك مراجعة التفكير التقليدى " (1) إن التفكيك – إذاً حركة أو تيار يتسم بالرفض والـــتحول ضـــد القـــديم المـــوروث سواءً من المذاهب الفلسفية كالمثالية أو الميتافيـــزيقية ، والتحليلـــية عـــند رسل Russell وجورج مور Moore ، وفتجنشتين Wittgenstein ، أو المذاهب الأدبية كالبنيوية عند دى سوسير De Saussere وليڤـــى شتراوس L'evi-Strauss وغيرهم من البنيويين ، ومن المعلوم أن تلك المذاهب اهتمت بفلسفة اللغة وتحليل قواعدها ورموزها وبنيتها ، والعلاقة بينها وبين الكلام .

من ناحية أخرى نستنتج أن التفكيك بما أنه يرفض ويقوض وينقد كل مقولة وكل نظرية يعتقد أصحابها أنها مبرهنة شاملة وصادقة ، فإنه لا يبنى

---

1) Derrida (J.) : Intrview QTD in Vincent B. Leitch : Deconstructive Criticism London – 1983 – P. 261 .

شـــئ ســـواءً في الفلسفة أو في الفن أو فى اللغة أو في التاريخ ، " فما فعله دريـــدا مـــن إعادة تفكيك للترتيب هو تدخلات استراتيجية لا تمهد لقيام علم جديـــد ، بل تمارس ضغطاً على نظام من المفاهيم وتخل به لتجعل مسلماته وأوجـــه قصـــوره باديـــة للعيان . وتركزت قراءات "دريدا" فى العادة على مصـــطلحات لا يوليها الشراح أى أهمية . " [1] إذاً (فقد جاء التفكيك لينسف كل القواعد والقوانين ويعطى المدلول حرية اللعب الكامل، منفصلاً عن الدال ، ويبيح للقارئ أن يفسر العلاقات بالمعنى الذى يشاء) [2]

المقصود هنا مدى اهتمام حركة التفكيك بكيفية تحليل وتأويل الفكرة والعلاقـــة واللغة من خلال القارئ أو المتلقى وإعطاءه مساحة أوسع وحرية كاملة فى التناول . ويبرز التساؤل هنا : هل التفكيك – رغم استخدام " دريدا" نفســـه للفظ الهدم Destruction معبراً عن التفكيك – ينطوى على إمكانية البناء أو إعادة بناء الفكر أم هو مجرد تفكيك من أجل التفكيك ؟

" إن مهمة التفكيك هو تفكيك البنيات البلاغية والميتافيزيقية الفاعلة فى النص ، ليس كى نرفضها أو ننبذها بل لنعيد كتابتها على نحو آخر " [3]

---

(1) ستروك (جون) : البنيوية وما بعدها (من ليفى شتراوس إلى دريدا) – الكويت – المجلس الوطنى للـــثقافة والفـــنون والآداب – عالم المعرفة – 1996 – العدد 206 – ص 234 .

(2) د. عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك) – الكويت – عالم المعرفة – 1998 – العدد 232 – ص 321 .

(3) ســـبيفاك (جايتريا / نوريس (كريستوفر) : صور دريدا – ترجمة / حسام نايل – مراجعة وتقديم / ماهـــر شفيق فريد – القاهرة –المجلس الأعلى للثقافة –2002– العدد 319– ص 105.

ولكـــن طبـــيعة التفكيك لا تعيد بناء النص أو النظرية أو الكتابة ، بل – كما ذكـــرنا – إنـــه اســـتراتيجية أو خطـــة للتغيير والهدم والاختلاف والترتيب والتعارض ، اما عن منهج دريدا فقد قال عنه " أنه ، منهج قلب وإزاحة " [1]

اســـتنتاجاً مـــن ذلك يُعد التفكيك ممارسة ناقدة وحركة فكرية تجذر أطـــراف القضـــايا والمصطلحات والنظريات والمذاهب قد يكون الهدف منه إعـــادة بـــناء الفكـــر ذاته أو رفضه كليةً . وعلى الرغم من ذلك فكان لتلك الحركة التفكيكية تأثيراً واضحاً فى تيار ما بعد الحداثة Postmdernism ، فـــى كونها إتباع طريقة وأسلوب للتناقض والاختلاف والرفض ، وقد ظهر جلـــياً فـــى تناول " ليوتار" Lyotard للحكايات الكبرى أو المذاهب الفلسفية الكبـــرى الســـابقة التـــى ظهرت فى القرنين 18 ، 19 كالمثالية والوضعية ورفضـــها تماماً . وسوف يتناول الباحث ذلك بالتحليل فى الفصل الثانى من البحث .

ثالثاً : ما بعد الحداثة ومحاولة التحديد

حـــاول الـــباحث تحديد مفهوم " ما بعد الحداثة " Postmodernity مقارنـــة بمفهوم " الحداثة " ، وما ارتبط به من محاولات ثقافية وفنية ، ذلك تمهـــيداً للدخـــول فـــى إدراك ماهية تيار ما بعد الحداثة ذاته كحركة ثقافية معاصرة .

فلفـــظ " ما بعد " شاع استخدامه فى الفكر والفن المعاصرين وكذلك النظريات الاجتماعية ، مثل : المجتمع ما بعد الصناعي ، وما بعد البنيوية ، ومـــا بعـــد الحداثـــة ، " فـــنحن الآن أمـــام ما يطلق عليه فكر الماورائيات Beyonds التى تحتويها فكرة المابعد Post ، مثل ما وراء النزعة الإنسانية

---

[1] المرجع السابق – ص 107 .

أى ما بعد ، ما وراء الميتافيزيقا ، ما وراء النزعة المتعالية ، ما وراء الفكر التمثيلي ، ما وراء الفينومينولوچيا ، ما وراء الذاتية الحديثة ... " [1] وعلى الرغم من استخدام هذا المصطلح إلا أنه غامض تكتنفه صعوبات جمة ، إلا أن محاولات التحديد كانت وتظل أقرب لتجنب عدم التحديد أو استحالته .

مـــن ثـــم كان تناول مصطلح " ما بعد الحداثة " محاولة لفهم تيارها وحقيقـــتها " لقـــد كان أول استخدام توكيدى لمصطلح " ما بعد الحداثة " فى الســـتينات مـــن جانب نقاد الأدب أمثال " ليزلى فيدلر Leslie Fiedler " وإيهاب حسن " ، اللذين كانا يعتنقان آراء شديدة التباعد بصدد ما يعنيه أدب مـــا بعد حداثى ، ولم يكتسب المصطلح تداولاً أوسع إلا خلال أوائل وأواسط الســـبعينات ، وشـــمل العمارة أولاً ، ثم الرقص ، والمسرح ، والتصوير ، والســـينما ، والموســـيقى ... " [2] ومـــن انتشار تيار " ما بعد الحداثة " فى الـــولايات المـــتحدة الأمـــريكية ، انـــتقلت مضامينه إلى أوربا وعلى وجه الخصوص فى فرنسا على يد ليوتارyotard وبودريار Jean Baudillard ، وكريســـتيفا ، وإلـــى ألمانيا عند هابرماس Habermas رغم تمسكه بمفهوم الحداثة . لقد تعامل الفلاسفة مع المصطلح الأمريكي في صيغ ثقافية ومعرفية إمـــا فـــى صـــورة تفكيكية تأويليه ، أو فى صيغة بناء أركيولوچى (بدائي) للمعرفة . ومن التعريفات المقترحة أو التي صيغت لمفهوم ما بعد الحداثة ، مـــا ذكـــره فردريك چيمسون Fredric Jameson " أن ما بعد الحداثة هى

---

1) Pippin (Robert B.) : Modernism as a philosophy problem – Basil Blackwell– Oxford – 1991 – P.P. 157 – 158 .

2) Huyssen (Andreas) : After the great divide : Modernism . Mass Culture Postmodernism – Indiana University Press – 1986 – P. 184 .

خـــروج علـــى الثقافة السائدة والاستيطيقاAesthetics [الفنون] السائدة ، وانفصال عن وضع اقتصادي - اجتماعي معين " [1]

ويذهب ليوتار Lyotard إلى " أن لفظ " ما بعد حداثى " شائع الاستخدام فى القـــارة الأمـــريكية بين السوسيولوجيين والنقاد . وهو يحدد حالة ثقافتنا فى أعقاب التحولات التى غيرت قواعد اللعب منذ نهاية القرن 19 " [2]

ويقول " أننى أعرّف ما بعد الحداثى " بأنه التشكك إزاء الميتاحكايات " [3]

والمقصود بالميتاحكايات هى تلك المذاهب الفلسفية والأدبية السابقة التي ورثهـــا الفكر المعاصر كالمثالية والوضعية والماركسية وكلها ينبغي تفكيكها ورفضها .

ويعتقد هيبدايج Dick Hebdige بأن حقيقة ما بعد الحداثة هى (زمن التلفـــيق والمحاكاة المعارضة Pastiche والرمز الكنائى والفراغ الضخم في عمـــارة الســـبعينيات Hyperspace ، ورأى "هودنوت" بأن عصر ما بعد الحداثـــة يوازى فى عالم البناء اكتشاف صيغة " فوق وظيفية وإمكانية إقامة مساكن جديدة سابقة التجهيز وقابلة للحركة والتركيب " [4] وهذا يعنى أن ما

---

(1) روز (مارجريت) : ما بعد الحداثة - (تحليل نقدى) - ترجمة / أحمد الشامى - القاهرة - الهيئة لمصرية العامة للكتاب - 1994 - العدد 153 - ص 76 .

2) Lyotard (J. F.) : Postmodern Condition (A report on Knowledge) - Trans. By Geoff Bennington and Berian Massumi - Foreword by Fredric Jemeson - University of Minnesota Press - Minneapolis - 1993 - (Introduction) -.

3) Ibid : P. XXiV .

- د. محمـــد علـــى الكردى : من الحداثة إلى العولمة - الإسكندرية - الملتقى المصرى للإبداع والتنمية - سلسلة الدراسات الفكرية والفلسفية - العدد الأول - 2001 - ط1 - ص 29 .

بعـد الحداثة اهتمت بفن العمارة والبناء ، وتمثل معارضة أو مقابلة لعصر الحداثـة رغـم كـونها ناتجة عنها أو هى – كما يقول ليوتار – " جزء من الحداثـى " [1] " وما بعد الحداثى سيكون فى الحداثى هو ما يبرز ما لا يقبل الـتقديم فـى التقدم نفسه ... [وما بعد الحداثى] هو ما يبحث عن تقديمات جديـدة " [2] إذاً تـيار مـا بعد الحداثة يبحث عن الجديد المغاير للحداثة ، وينهض لاكتشاف ما هو جديد ، أو لتعديل أو تغيير وتفكيك ما يمكن تغييره وتفكـيكه ورفضـه من المذاهب والنظريات الفلسفية والأدبية والفنية السابقة والتـى أتت من الحداثة . إلا أنه فى نفس الآن لا يمكن القول أو الحكم بأن كـلا التـياران منفصلان،بل هما تياران قد لا يلتقيان معاً فى نقطة واحدة . ومن ثم فإن ما بعد الحداثة تمثل حقبة بارزة فى مستقبل الثقافة الغربية وتحدد ملامحها ومسارها .

من ناحية أخرى يذهب "ليوتار" Lyotard إلى أن ما بعد الحداثة كما تفهـم إذاً ليسـت الحداثة فى نهايتها ، بل هى فى حالة الميلاد ، وهذه الحالة مستمرة " [3]

مـا بعـد الحداثة – إذاً – لها دور وأهمية أساسية فى تغيير الثقافة الغربية وتحـولها سـواءً فى الأدب أو الفن أو العلم أو الفكر بوجه عام ، وليس – بالتالـي – مجـرد تيار فارغ المضمون ، أو مجرد حركة نقدية جوفاء ، أو مجرد تيار سوفسطائي شكي يتلاعب باللغة دون تحديد جوهرها .

لقد تحدث ليوتار Lyotard – موضع الدراسة – عن الحداثة لكونها نظـرت إلى الحياة المعاصرة نظرة جزئية تخصصية ، فكل مجال فى الفن

---

1) Ibid : P. 79 .

2) Ibid : P. 81 .

3) Ibid : P. 79 .

بعـــد الحداثة اهتمت بفن العمارة والبناء ، وتمثل معارضة أو مقابلة لعصر الحداثـــة رغـــم كـــونها ناتجة عنها أو هي – كما يقول ليوتار – " جزء من الحداثـــي " [1] " وما بعد الحداثي سيكون في الحداثي هو ما يبرز ما لا يقبل الـــتقديم فـــي التقدم نفسه ... [وما بعد الحداثي] هو ما يبحث عن تقديمات جديـــدة " [2] إذاً تـــيار مـــا بعد الحداثة يبحث عن الجديد المغاير للحداثة ، وينهض لاكتشاف ما هو جديد ، أو لتعديل أو تغيير وتفكيك ما يمكن تغييره وتفكـــيكه ورفضـــه من المذاهب والنظريات الفلسفية والأدبية والفنية السابقة والتـــي أتت من الحداثة . إلا أنه في نفس الآن لا يمكن القول أو الحكم بأن كـــلا التـــياران منفصلان،بل هما تياران قد لا يلتقيان معاً في نقطة واحدة . ومن ثم فإن ما بعد الحداثة تمثل حقبة بارزة في مستقبل الثقافة الغربية وتحدد ملامحها ومسارها .

من ناحية أخرى يذهب "ليوتار" Lyotard إلى أن ما بعد الحداثة كما تفهـــم إذا ليســـت الحداثة في نهايتها ، بل هي في حالة الميلاد ، وهذه الحالة مستمرة " [3]

مـــا بعـــد الحداثة – إذاً – لها دور وأهمية أساسية في تغيير الثقافة الغربية وتحـــولها ســـواءً في الأدب أو الفن أو العلم أو الفكر بوجه عام ، وليس – بالتالـــي – مجـــرد تيار فارغ المضمون ، أو مجرد حركة نقدية جوفاء ، أو مجرد تيار سوفسطائي شكي يتلاعب باللغة دون تحديد جوهرها .

لقد تحدث ليوتار Lyotard – موضع الدراسة – عن الحداثة لكونها نظـــرت إلى الحياة المعاصرة نظرة جزئية تخصصية ، فكل مجال في الفن

---

1) Ibid : P. 79 .

2) Ibid : P. 81 .

3) Ibid : P. 79 .

والعلم والأدب له ميدانه التخصصي المستقل عن بعضه البعض ، فالحداثة إذا كانت قد أخفقت ، فإخفاقها يكمن فى سماحها لكلية الحياة بأن تتجزأ أو تتفتت إلـــى تخصصـــات مستقلة متروكة لكفاءة الخبراء الضيقة . " [1] وكانت تلك النظرة الضيقة للحداثة من الدوافع الهامة لاستحداث تيار ما بعد الحداثة .

إلـــى جانـــب ذلك يمكن للباحث عرض بعض مظاهر وتحولات ما بعد الحداثـــة عند ليوتار كما أوضحها فى كتابه" الوضع ما بعد الحداثى [أو حالة ما بعد الحداثة]:

أولاً : أن المعرفة المابعد حداثية تساعدنا على إدراك الاختلاف بين الأشياء ليس للبرهنة عليها بل لمعرفة الاختلافات والفوارق بينها من خلال ما أسماه "ليوتار" " بالبارولوچيا أو الخطاب الهامشى " [2]

ثانـــياً : أن العلـــم ما بعد الحداثى يهتم بالأشياء الغير قابلة للتحديد ، كما أنه يغير مفهوم المعرفة ، إلى جانب سعيه وبحثه الدؤب لإدراك المجهول .

ثالـــثاً : ان مـــا بعـــد الحداثة تدعو إلى استخدام الكفاءة والفعالية أو الأدائية الفاعلة فى البحث العلمى . وسوف يتناول الباحث مفهوم الأدائية فى الفصل الثانى من البحث .

رابعـــاً : أن الفن ما بعد الحداثى ينبغى أن لا يخضع لقواعد مسبقة وشروط مفروضة فى التجربة الفنية أو العمل الفني .

خامســـاً : :ينبغى للفلسفة أن تعيد تركيب وحدة المعرفة والعلوم التى تجزأت وتفتتت من قبل فى حركة الحداثة .

---

1) Ibid : P 71 .

2) Ibid : P. XXV (Introduction) .

تلك بعض مظاهر حركة ما بعد الحداثة ، فهى حركة ترمى إلى استحداث أسلوب جديـد فى صيغة – أطلق عليها "ليوتار" – اقتباساً من "فتجنشتين" – ألعاب اللغة Language Games فـى الفـن والـثقافة والعلم والبحث العلمى والتكنولوجيا المعاصرة ، والمعرفة بوجه عام ، بحيث تسمح هذه الألعاب بوضع أنساق اتفاقية تتسـامى على الخلاف وترتفع عن التناقض . إلى جانب سعى العلماء والفنانون والكـتاب لوضـع حدود أو قواعد تكون محايثة للتجربة وليست سابقة عليها ، فاللعبة أو القاعدة لا تنبع إلا من خلال ممارسة حقيقية للعمل العلمي أو الفنى أو الأدبى ، مع استخدام التكنولوجيا المعاصرة وبخاصة الكمبيوتر وبنوك المعرفة أو بنوك الذاكرة وعلوم التليماطيقا Telematics (علوم التحكم عن بُعد) كوسائل أساسية لقراءة المستقبل ومعايشة الحاضر .

الفصل الثانى

ليوتار ومستقبل المعرفة

مقدمـــة :

مـــن المعلـــوم فـــى الفكر الفلسفى أن كل جديد مرهون بمعايير جوهرية أهمهـــا :

الأول : بمـــا يحققـــه مـــن نقلة كيفية حقيقية للفكر وإحداث تأثيرات إيجابية مقصودة .

الثانى : إضافة طرق وأساليب جديدة ومبتكرة للتفكير بحيث لا تكون تقليدية أو تكرار لسابقتها .

الثالث : وضع اقتراحات مستقبلية تجاه القضايا الفلسفية والعلمية ومساهمتها فى تحقيق بناء حضارى يشمل المعرفة والعلم والفن والأدب .

من ثم فإن " ليوتار " Lyotard – أحد فلاسفة تيار ما بعد الحداثة – قـــد تبنـــى مفاهيم واستحدث اصطلاحات فلسفية جديدة تمثل انعكاس لقراءة الـــتطورات العالمـــية فى العلم والتكنولوجيا والثقافة ، وما تبعها من انتشار العـــولمة Globalization كظاهرة اقتصادية وسياسية وثقافية ، إلى جانب انتشار وسائل الاتصالات والفضائيات والكمبيوتر وغيرها كوسائل تكنولوجية متقدمة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، تناول " ليوتار " قضايا فلسفية ليســـت جديدة إلا أن مضمونها ومفاهيمها استحدثت بأفكار جديدة ، كالأدائية والخطاب البارولوچى ، والتعددية ، فى سياق تناول المعرفة والبحث العلمى ، وكيف يمكن أن تتطابق المشروعية على تلك القضايا .

لقـــد تناول الباحث بالتحليل فى هذا الفصل قضية مشروعية المعرفة وعدم مشروعيتها وعلاقتها بالحكاية ، والعلم ، والبحث العلمى .

وتـــناول كـــذلك رؤية "ليوتار" فى الفن ومدى تحوله من الجميل إلى الجليل ... ليبرز أهمية تيار ما بعد الحداثة ودوره فى تجسيد فكر معاصر .

أولاً : مشروعية المعرفة ودور العلم والبحث العلمى

- تكنولوجيا المعرفة :

المعـــرفة Knowledge فـــى ذاتها كيان متغير مع استمرار الحياة الإنسانية، وتعبير جم عن حضارة الإنسان وتاريخه وتنوع مجالاته وتعددها ، مـــن ثـــم كـــان لـــزاماً – مع تغيرها وتحولها – أن تفسر وتحلل بتفسيرات وتحلـــيلات مخـــتلفة ، إما وفق البيئة التى تنبع منها ، أو وفق معيار تقدم أو تخلـــف مجتمع بعينه ، أو تبعاً لديانة أو عقيدة يعتنقها شعب ما . فلقد وضع الفلاســـفة "نظـــرية للمعرفة" كأساس لفهم الطبيعة والعقل الإنسانى وبدورها لتأكيد وجوده وإثبات كيانه ، فالمعرفة التاريخية تؤكد ماضيه وتراثه بكل ما تحمـــل مـــن أحداث ووقائع، والمعرفة الدينية تبرز مدى تمسكه بالله ومدى إيمانـــه بـــه ، متضمنة تلك الديانة أو تلك العقيدة من معان سامية تعبر عن تواصـــله بما هو أكمل منه، كذلك المعرفة العلمية تشكل حاضره ومستقبله ، من ثم ظهر على مر حقب الفكر الفلسفى تيارات واتجاهات تناولت المعرفة كـــل بمفهـــومه ، فمنها التجريبى والحسى ومنها الامبيريقى ومنها النقدى ، ومنها العقلى ومنها المثالى ، إلى غير ذلك من مفاهيم .

وفـــى الفكر المعاصر أو الحاضر برز أحد التيارات الفلسفية كانعكاس لســـابقيه من تيارات ، أعنى تيار ما بعد الحداثة Postmodernism وتناول الـــباحث ذلـــك بالتحليل فى الفصل السابق من البحث ، وكان انعكاساً لتيار سابق هو الحداثة Modernism .

وقـــد اهتم ليوتار Lyotard اهتماماً واضحاً بالمعرفة وحالتها الراهنة وتأثـــرها العميق بما أنتجه العصر الراهن من تكنولوچيا وعلم وفن " فوضع

المعـــرفة يتغيـــر بينما تدخل المجتمعات ما يعرف بالعصر ما بعد الصناعى Post Industrial Age، والثقافات ما يعرف بالعصر ما بعد الحداثى Post Modern Age" [1] فمظاهـــر عصـــر مـــا بعـــد الحداثة تمثلت فى ثورة التكنولوچيا المعلوماتية وتكنولوچيا وسائل الإعلام ، وفى مجملها انعكس على المعـــارف بكـــل صـــنوفها النظـــرية منها والعملية " فتأثير هذه التحولات التكنولوچية على المعرفة ملحوظ ، وقد بدأت وظيفتاها الأساسيتان – البحث Resarch ونقـــل المعارف المكتسبة The transmission of a equired learning – تتأثران بالفعل أو سوف تتأثران فى المستقبل " [2] من ثم " لا يمكن لطبيعة المعرفة أن تظل دون تغير ، فلا يمكن أن تلائم القنوات الجديدة ، وتصبح وظيفية ، إلا إذا أمكن ترجمة المعارف إلى كم معلوماتى " [3] .

إذاً المعـــارف لـــم تقتصـــر الآن على كونها داخلية ، مصدرها العقل والإحســـاس ، بقـــدر تحولها إلى أن تصبح معرفة خارجية مصدرها بنوك المعـــرفة وبـــنوك الذاكـــرة نتيجة هذا التطور التكنولوچى الهائل ، ومن هنا تحـــولت إلى معرفة كمية أى تحولت إلى معرفة سلعية رابحة " فالمعرفة فى شـــكل ســـلعة معلوماتية لا غنى عنها للقوة الإنتاجية فأصبحت تمثل بالفعل وســـتظل تمـــثل رهاناً أساسياً – إن لم يكن الرهان الرئيسى – فى المنافسة العالمية على السلطة " [4] وهذا يدل دلالة واضحة على أن تطور التكنولوچيا بكل وسائلها وخاصة السيبرنطيقا Cybernetics (علم التحكم فى الكائنات الحية والآلات) والتليماطيقا Telematics (علم التحكم والاتصال عن بُعد) والحواسب الآلية ، والفضائيات ، وغيرها ، أحدث تحول فى المعرفة وجعلها

---

1) Lyotard (J. F.) Postmodern Condition – P. 3 .

2) Ibid : P. 4 .

3) Ibid : P. 4 .

4) Ibid : P. 4 .

تـدخل فى نطاقين جليين هما : نطاق رأس المال مع الاستثمار ، فأصبحت معـرفة اسـتثمارية ، والـنطاق الثانى هو سلطات الدولة ، وذلك فى كيفية الـتحكم فى المعلومات ، وفى نفس الآن كيفية الاستفادة منها واستثمارها فى مجـالات الاقتصـاد والسياسة والثقافة . من هنا يسأل "ليوتار" : " هل هناك خطر على المعرفة فى أن تزداد المشكلة حدة مع تطور تكنولوچيا الحواسب الآلـية وعلـوم الاتصـال عن بُعد . لنفترض على سبيل المثال ، أن شركة I.B.M. قد حصلت على ترخيص بأن تحتل جزءاً فى مجال دوران الأرض وتطلق أقمار اتصالات أو أقمار تخزين المعلومات من سيملك حق الوصول إلـيها ؟ ومن سيقرر حظر قنوات أو بيانات معينة ؟ هل هى الدولة ؟ أم أن الدولة ستكون طرف فى استعمالها بين الآخرين ؟ سوف تثار مشاكل قانونية ، ومعهـا سيثار سؤال : من الذى سيعرف ؟ من هنا فإن التحول فى طبيعة المعرفة يمكن أن تكون له آثاره على السلطات العامة " [1]

ولكـى يـؤكد ليوتار Lyotard على ارتباط نظام الدولة السياسى أو السـلطة بالمعرفة نتيجة التكنولوچيا ، فقد بحث عن نوع المعرفة التى يمكن أن تهـتم بهـا الدولـة لاستخدامها واستغلالها للارتقاء بها ، وذهب إلى أن المعرفة متنوعة ولا تقتصر على مجال بعينه ، فالمعرفة ليست هى العلم بل أن العلـم جزء أو فرع من المعرفة " فالمعرفة لا يمكن اختزالها إلى العلم ، ولا حتـى المعـارف منظومة من المنظومات ... العلم منظومة فرعية من المعـارف " [2] مـن ثـم فـإن من أهم سمات وملامح المعرفة الجوهرية والأساسـية هـى " أنهـا تتطابق مع مدى واسع من إجراءات بناء الكفاءة

---

1) Ibid : P.P. 5-6 .

2) Ibid : P. 18 .

Competence Building وتمـثل الشكل الوحيد المتجسد فى ذات تؤسس من خلال المجالات المتنوعة للكفاءة التى تؤلفها " [1]

المعـرفة – إذاً – شـاملة لكل المعارف والفنون والآداب والعلوم ، وتحتاج إلى أداء وكفاءة المجتمع الذى تنتشر فيه تلك المعرفة بكافة صورها . أى أن "ليوتار" هـنا لا يهدف إلى تجزئ أو تجذير المعرفة بقدر اهتمامه بجوهـر المعـرفة، فهى إما أن تكون مواكبة لتطورات العصر مما ينعكس علـيها بالـتحول والتبدل والتغير ، وإما أن تكون تقليدية سردية تُعرض فى صورة حكايات وقصص تستند إلى الماضى وتنبع من داخل حياة المجتمعات والشعوب .

المعرفة الحكائية Narrative Knowledge

ذهب ليوتار إلى أن الحكاية هى الشكل الجوهرى للمعرفة التقليدية ، ولها معان عديدة ، أولها : أن القصص الشعبية تحكى ما يمكن تسميته بأنواع التأهيل Apprenticeships الإيجابية أو السلبية ، وبتعبير آخر ، النجاحات أو الإخفاقات التى تواجهها جهود البطل . وهذه النجاحات أو الإخفاقات إنما تضـفى المشـروعية علـى المؤسسـات الاجتماعية ... بهذه الطريقة تتيح الحكايات للمجتمع التى تحكى فيه ، أن يحدد معاييره للكفاءة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أن يقيم على أساس تلك المعايير ما يؤدى أو يمكن أن يؤدى " [2] فالحكاية – إذاً – لها تأثير عميق سواءً بالإيجاب أو بالسلب على المجـتمع وتحتاج لسردها كفاءة الخطاب المعرفى المتمثل فى راويها أو من يسـردها ، وتقتضـى بالتالـى إلى الحبكة الروائية ونسجها بإحكام ثم نقلها للآخرين ، من ثم فإن دور الراوى دور هام فى نقل تلك المعرفة التقليدية .

---

1) Ibid : P.P. 18-19 .

2) Ibid : P.P. 19-20 .

ولـذلك يحدد "ليوتار" أهم معايير الكفاءة فى ثلاث أنواع من المعرفة وهى :

1- معرفة كيف نعرف Know how ،

2- ومعرفة كيف نتكلم Knowing how to speak ،

3- ومعرفة كيف نستمع Knowing how to hear ،

وهـنا يحـدث التواصل والترابط بين المجتمع " فما يتم نقله من خلال هذه الحكايات هى منظومة من القواعد البرجماتية [الأدائية العملية] التى تؤسس الـرابطة الاجتماعية The Social bond " [1] إلى جانب تلك المعايير التى تؤسـس فـى جوهرها الرابطة الاجتماعية – يضيف " ليوتار " مدى تأثير المعـرفة الحكائـية علـى الـزمن تأثيـراً عميقاً ، وذلك من خلال التعبير بالموسيقى والاحتفالات الطقسية أو الطقوس التى تجمع فئات المجتمع الواحد ، والأغانـى والأمـثال الشعبية ، والحكم، والأقوال المأثورة ، وكلها " مثل شذرات من حكايات محتملة ، أو قوالب لحكايات قديمة ، واصلت تداولها فى مسـتويات معيـنة مـن البـناء الاجتماعى المعاصر . ويمكن التعرف فى عروضـها علـى أثـر ذلك التوقيع الغريب للزمن والذى يتنافر مع القاعدة الذهبـية لمعرفتنا : وهى " لا تنس أبداً Never forget " [2] وهذا يؤكد أو يبـرهن علـى مدى فعالية الحكاية ودورها الوظيفى البنائى فى تشكيل حياة الشـعوب والمجـتمعات وفـى تكوين الرابطة الاجتماعية وتحقيق التواصل الاجتماعـى علـى الـرغم من نشرها فى مجتمع معاصر يقوم على التقدم التكنولوچـى والعلمى الهائل . إلا أننا نتساءل : هل يعنى تقرير "ليوتار" عن المعرفة الحكائية ، أنه يؤمن بها ، أعتقد أنه يتعامل مع هذا النوع من المعرفة

---

1) Ibid : P. 21 .

2) Ibid : P. 22 .

التقليدية بأسلوب التفكيك يتحول من خلاله إلى إمكانية نقل المعرفة من هذا السرد والقص إلى المعرفة المعاصرة أى المعرفة العلمية .

وما يثبت ذلك أن "ليوتار" قارن بين المعرفة الحكائية والمعرفة العلمية وأكد أن بينهما اختلافات واسعة ، فتلك مصدرها الماضى، وهذه منبعها الحاضر والمستقبل "

1- إن المعرفة العلمية تتطلب الإبقاء على لعبة لغوية واحدة هى لغة الاشارة ، واستبعاد جميع ما عداها .

2- أن المعرفة العلمية منفصلة عن ألعاب اللغة [أى قواعد اللغة] التى تشارك معا فى تشكيل الرابطة الاجتماعية .

3- أنها مختلفة عن المعرفة الحكائية ولم تعد مكوناً مباشراً مشتركاً فى الرابطة.

4- أن المعرفة العلمية تقوم على التحقق بالتدليل والبرهان وعدم التناقض ، وأى منطوق علمى لابد أن يتأكد بالبرهان وإعطاء الدليل الصادق الذى يدحض كل البراهين السابقة عليه ، أما المعرفة الحكائية فلا تقوم على البرهان من خلال السرد والقص ، بل تقوم فقط إما على الأسطورة أو الخبر

5- أن المعرفة العلمية هى معرفة خارجية صادرة من الواقع وعن العالم المحيط بالإنسان . أما المعرفة الحكائية فتتبع من داخل الذات ، ومن ثم ليس عليه أن يدرك ما تصفه المعرفة من الخارج بل ما يصفه هو من داخل ذاته .

6- أن المعرفة العلمية تقوم على قراءة النظريات أو الابتكارات السابقة بحيث تُعد مرجعاً للباحثين يهدف إلى عدم تكرارها ومن ثم ابتكار الجديد ومعرفة علمية جديدة وبالتالى تظل المعرفة العلمية بمثابة مشروع لم يكتمل بعد .

أما المعرفة الحكائية إنما تقوم على ذاكرة خبرية تستلهم فيها قصة أو رواية تستند إلى أبطال قد يكونوا حقيقيين وقد يكونوا وهميين مجهولين .

" إذا مـــن المســـتحيل الحكم بصلاحية المعرفة الحكائية على أساس المعرفة العلمية أو العكس ، فالمعايير المتعلقة بكل واحدة منها مختلفة " [1]

إلا أنـــه رغـــم تلـــك الاختلافات البينه بين نوعى المعرفة الحكائية التقلـــيدية و العلمية المعاصرة ، فإن وظيفة اللعبة الحكائية وظيفة لاغنى عنها فى عرض الاكتشافات

والنظريات والابتكارات العلمية ، فالعلماء حين يحققوا اكتشافاً علمياً جديـــداً يـــرونه ويحكونه على شاشة التليفزيون أو يعرضونه على صفحات الصـــحف أى يســـتخدمون وسائل الإعلام لذلك " فالدولة تنفق أموالاً طائلة لتمكن العلم من أن يتزين بزى ملحمة [حكاية] " [2]

نســـتنتج مـــن ذلك أن إضفاء الأهمية الوظيفية للحكاية يعنى إضفاءً لمشروعيتها وصلاحيتها لذلك " فالمعرفة العلمية لا يمكن أن تُعرف أو تكشف عـــن كونها معرفة صادقة بدون اللجوء إلى المعرفة الحكائية ، رغم أنها لا تعد من وجهة نظر المعرفة العلمية معرفة على الإطلاق " [3]

وإذا كـــان العلم يلجأ إلى الحكاية أى لجوء العلمى لما هو غير علمى لا يعنى أن براهينه تستند إلى البراهين الميتافيزيقية التأملية التى تدور حول ذاتها ولا تؤدى إلى حل مشكلة صلاحية المعرفة ، لذلك لابد من طرح البحث الميتافيزيقى جانباً بعيداً عن العلم والمعرفة العلمية عند الاستناد إلى المعرفة الحكائية .

---

1) Ibid : P. 26 .

2) Ibid : P. 28 .

3) Ibid : P. 29 .

لقد تناول " ليوتار" Lyotard المعرفة الروائية أو الحكائية بشئ من الاهـتمام ذلـك لكونها أصبحت فى الغرب بمثابة مشروع ينبغى تطبيقه فى مجال المعرفة العلمية ، والمعرفة الشعبية ، والنظام السياسى للدولة ، من ثم كان لزاماً لتحقيق تلك المشروعية فى المعرفة " أن يتخذ – الغرب – طريقين : اعتماداً على كونه يمثل الحكاية بوصفها إدراكية أو عملية ، بوصفها بطلاً للمعرفة أو بطلاً للحرية" (1)

إذاً فالمعـرفة الحكائية تشمل جوانب أيديولوجية سياسية واجتماعية تتمثل فى الشـعب والدولـة ، وتشـمل جـوانب علمية تتمثل فى عرض الاكتشافات والنظريات العلمية ، كما أن لها دور وظيفى مباشر أو غير مباشر فى النظام السياسى أو السلطة والمعرفة العلمية .

التحول ومشروعية البحث العلمى

إن المشروعية الحقيقية التى أراد "ليوتار" Lyotard – من خلال تيار مـا بعد الحداثة – أن يقدمها هى التحول – كما أوضح الباحث – من السرد المعرفـى والحكائـى ومحاولـة التحرر منها إلى التوجه نحو تحقيق أفضل لمشـروعية المعـرفة يتمـثل فى المعرفة العلمية وذلك فى ظل الرأسمالية الليبـرالية المـتقدمة " ففـى المجتمع والثقافة المعاصرين – مجتمع ما بعد صـناعى ، وثقافـة مـا بعد حداثية – يصاغ سؤال عن مشروعية المعرفة بمفـردات مختلفة . فقد فقدت الحكاية الكبرى مصداقيتها ، بغض النظر عن نوعـية الاتحاد التى تتناوله ، وبصرف النظر عما إذا كانت حكاية تأملية أو تحررية . إن أقول [غياب] الحكاية يُعد أحد ازدهار التقنيات والتكنولوجيات منذ الحرب العالمية الثانية " (2) والمقصد هنا من الحكايات الكبرى يتمثل فى

---

1) Ibid : P. 31 .

2) Ibid : P. 37 .

الفلسفات المثالية والوضعية والميتافيزيقا ، فقد توارت نتيجة التطورات العلمية والتقدم التكنولوجي الهائل في وسائل المعرفة ، وفي أهدافها ، من هنا انتزعت المشروعية من المعرفة الحكائية إلى المعرفة العلمية ذات المشروعية الحقيقية . " فالعلم الذى لم يكسب نفسه المشروعية [أى الصلاحية] ليس علماً حقيقياً ... A science that has no legitimated itself is not a true science " [1]

من ثم أصبح للبحث العلمى أهمية قصوى فى إنتاج المعرفة والكشف عن مدى إمكانية مواءمتها لتطورات العصر ، ونتيجة لذلك ينبغى أن تتوافر فى البحث العلمى ذاته خصائص معينة ومحددة وهى " الاتساق ... والاكتمال التركيبى ... والفصل " [2]

أى أن البحث ينبغى أن يتشكل فى نسق أو تنظيم معين لا يكون متناقضاً مع ذاته . بل تكون مكوناته متكاملة ، فلا تضاف إليه – على سبيل المثال – بديهية تفقد مصداقيته وبالتالى لا تستخدم قضايا – داخل نسق البحث – تتعارض مع مفهومه ومكوناته ومنطلقاته . من هنا يمكن القول أن اتساق البحث وتركيبه العلمى واكتمال خصائصه وتكامل مكوناته إنما يجعله بحثاً علمياً مقبولاً ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ينتج معرفة علمية حقيقية ، وتحول من لعبة معرفية قصصية ذات طابع تاريخى ، إلى لعبة جديدة تُعد برجماتية عملية مقبولة ذات " منطوقات جديدة تعتمد على تعاقد مبرم بين الشركاء ... " [3] وإلى جانب ما يحدثه البحث العلمى من تحول فى المعرفة ، فإن البحث ذاته بما أنه يستخدم فى إطار مكوناته ، التحقق والبرهان

---

1) Ibid : P. 40 .

2) Ibid : P. 42 .

3) Ibid : P. 43 .

رياضـــياً كـــان أو فيزيائياً فإنه " يحتاج إلى المعدات التكنولوجية كمعاونات إضافية للأجهزة البشرية أو كأنظمة فسيولوجية وظيفية لاستقبال البيانات أو تحديد السياق ... فالتكنولوجيا لعبة لا تنتمي إلى الصادق أو العادل أو الجميل ، بل تنتمي إلى الفعالية Efficiency : فالتحول التقني يكون " جيداً " حينما تؤدي عملها بشكل أفضل و/أو تستهلك طاقة أقل من غيرها " (1)

هذا يدل على أن التكنولوجيا لها دور وظيفي فعال وأساسي في دعم وتحقيق البرهان العلمي الصادق مما ينعكس – في الوقت الراهن – على أداء المعرفة العلمية الأمثل والأفضل .

أصبح لدينا – إذاً – مقومات وركائز أساسية للبحث العلمي :

أولاً : وضـــع نســـق منطقـــي منظم يسير البحث العلمي بمقتضاه بدءاً من البديهيات وصولاً إلى البراهين .

ثانياً : استخدام التقنيات كأدوات ووسائط فعالة ترقى بالبحث العلمي والمعرفة العلمية ككل .

ثالـــثاً : اتفاق العلماء أو فريق العمل Team work البحثي على نسق محدد ويشمل الرموز والبديهيات والمسلمات والفروض التي تحقق البرهان

أي يمكن استخدام المنطق أو الميتا– لغة Meta-Lanruage أي اللغة الشارحة " فالتأكيد على العمل الجماعي يرتبط بسيادة معيار أدائية المعرفة ، ويصبح ناجحاً في تحسين الأدائية ضمن إطار نموذج معطى لتنفيذ مهمة " (2)

---

1) Ibid : P. 44 .

2) Ibid : P. 52 .

رابعـاً : تمـويل الـبحث العلمـي " عن طريق مؤسسات أبحاث خاصة أو مؤسسـات مملوكة للدولة أو مشتركة ، تمنح إعانات على البرامج للإدارات الجامعـية، ومعامل الأبحاث ، ومجموعات البحث الخاصة دون انتظار لعائد فـورى من نتائج العمل – ويتم هذا بناءً على نظرية أن البحث يجب تمويله بالخسـارة لمـدى زمنـي محـدد لـزيادة فرصـة أن يخـرج منه تجديد حاسم ، ومن ثم على ربحية أعلى " Highly profitable " [1] مرتكزات ما بعد الحداثة فى مشروعية المعرفة بعد تفكيك ليوتار Lyotard للعلم والبحث العلمى وعرضه لماهية المعرفة الحكائية ودورها الوظيفى فى تحقيق الرابطة الاجتماعية ، ومقارنتها بالمعرفة العلمية وتحليله للبحث العلمى وكيفية انتاجه لمعـرفة حقيقـية ، يضع عدة مرتكزات أساسية للمعرفة المشروعة أى التى يتحقق من خلالها صلاحية المعرفة ، وهى كالتالى :

أولاً : الخيال Imagination : " يمكن تصور عالم المعرفة ما بعد الحداثية على أنه محكوم بلعبة [بفكرة أو قاعدة] المعلومات الكاملة ، بمعنى أن البـيانات من حيث المبدأ تكون فى متناول كل خبير ، ومن ثم ليس سراً علمـياً ، ومـع وجود كفاءة متساوية (ليس فى اكتساب المعرفة ، بل فى إنـتاجها) ، فـإن مـا تعتمد عليه الأدائية الإضافية فى التحليل الأخير هو " الخـيال " الـذى يسـمح للمرء، إما بعمل نقلة [تحول] أو بتغيير قواعد اللعـبة " [2] فالخـيال عـند ليوتار يعنى انطلاق الباحث من بيانات منظمة ترتكـز علـى الخيال المرتبط بابتكار قواعد جديدة للتفكير أو ما يطلق عليه قـواعد اللعـبة Rules of the game ومن ثم لا يقتضي من الباحث إلى الاستناد إلى افتراضات مسبقة أو نظريات سابقة .

---

1) Ibid : P. 45 .

2) Ibid : P. 52 .

ثانـــيـــاً : الأدائـــية Performativity أو الكفـــاءة أو الفعالية أو الأثر ، " وتعـــرَّف بأنها نسبة من مدخلات ومخرجات ، فإن هناك افتراض مسبق بأن النســـق الـــذى يجرى فيه إدخال المدخلات نسق مستقر ، ولابد أن يتبع هذا النسق مساراً منتظماً يمكن التعبير عنه بأنه وظيفة لها ناتج ، حتى يمكن توقع دقيق للمخرجات التى يمكن الحصول عليها . " [1]

المقصد هنا من المدخلات Input هو مكونات وتراكيب النسق الذى يســـير البحث العلمى بمقتضاه ، ممثلاً فى مقدماته وطرق البرهان ، وعندما يـــتكامل هـــذا النسق يمكن أن يؤدى بفعالية إلى مخرجات Output أى إلى نـــتائج لها قيمتها الوظيفة الأدائية الفعالة فى المعرفة ، مما يحقق مشروعية الـــبحث العلمـــى من ناحية ومشروعية المعرفة من ناحية أخرى ، ومن ثم فالأدائـــية تعبـــر عن تحقيق توازن بين مكونات النسق ونتائجه . لذلك يؤكد "لـــيوتار" Lyotard على أن المعرفة العلمية ما بعد الحداثية تتعلق تعلقاً قوياً بمطلـــب الأدائـــية Performativity ، بشـــرط عدم الاستناد إلى الخطاب الميتافيزيقـــى وإنكار الحكايات والأساطير الخرافية Fables " بحيث يرتبط بمعـــيار الفاعلـــية : بـــراجماتيات التدليل بالحجج ، وإنتاج البرهان ، وتقل المعارف ، وتأهيل الخيال " [2]

ثالثاً : الاختلاف أو الاتساق : Differend : ويعنى " حالة من النزاع (على الأقل) بين مجموعتين ، ولا يمكن فضه بسبب عدم وجود قاعدة للحكم يمكن تطبيقها على المجموعتين " [3] كما أنه " حالة متغيرة غير ثابتة ونموذجاً للغة التى تقبل أن يصيغ المرء داخلها قول ما فى جمل لكنه لم يتمكن من صياغته

---

1) Ibid : P. 54 .

2) Ibid : P. 62 .

3) Lyotard (J.F.) : The Differend – Trans. By Gorge Van Abbeele – University of Minnesota Press – 1996 – P. XI .

بعـد، وهـذه حالة سالبة ، لكنه أيضاً أن يتطلع إلى الجمل الممكنة من حيث المبدأ ." (1)

وهـذا يـدل دلالة واضحة على أن تيار ما بعد الحداثة يسلك طريقاً آخـر من طرق الخطاب المعاصر غايته ليس التناقض فى ذاته أو استمراره أو عدم استمراره، وإنما هو طريقة أو أسلوب للبحث عن الجديد من الأفكار والابتكارات من خلال صياغات برجماتية عملية فاعلة تنبثق منها الممارسة العمليـة للعلـم والفن والأدب، وليس نتيجة الاستناد إلى نظريات مسبقة أو قـواعد مفروضة على الباحث أو العالم . من ثم فإن الاختلاف " – كما يراه "ليوتار" هو ذلك الخطاب البارولوجى Paralogy أو الهامشى الذى يسبب أويحدث اضطرابات فى المعرفة ، لينفصل عن المألوف والمعلوم الذى لدينا ، كالاخـتلاف عما تفرضه السلطة ، سلطة الدولة أو النظام السياسى ، على العلماء لانتاج معرفة محددة وفق قراراتها فقط ، والاختلاف عن الافتراضات المسـبقة فى العلم ، " فالاختلاف [إذاً] والتخيل الذى يتبعه العالم أو الباحث يؤديان إلى جانب الابتكار خلق قواعد جديدة ، وتوليد أفكار مبتكرة ، وكذلك إظهـار الافتراضات المسبقة للعلم أو ما يسميه " ليوتار" Lyotard بالميتا– تقعـيدات Metaprescriptives وبالتالـي " مطالـبة اللاعبين[العلماء أو الباحـثون] بقبول قواعد أخرى غيرها . والمشروعية الوحيدة التى يمكن أن تجعل هذا المطلب مقبولاً هو أنه سيولّد أفكاراً ، أو منطوقات جديدة " (2)

فالعلم المابعد حداثى – إذاً – يقوم على طريقة الاختلاف ليبحث عن المجهول من الأفكار ، ويبحث عن معرفة مشروعة وصالحة أو حقيقية .

---

1) Ibid : P. 13 .

2) Lyotard (J. F.) : OP. Cit. P. 65 .

إلا أنـــه – فـــى نفس الوقت – لا ينبغى أن يقوم على أسلوب الإجماع أو الاتفـــاق بين العلماء حول معرفة محددة ، مثلما ذهب إلى ذلك تيار الحداثة وما دعا إليه " هابرماس" Habermas فى مشروعه عن الخطاب الحداثى " فلا يبدو هـــذا ممكناً ، ولا حتى متعقلاً ، أن نحذو حذو" هابرماس " فى بحثنا عن مشكلة المشـــروعية أن يكـــون فى اتجاه بحث عن الاجماع الشامل من خلال ما يسميه " هابـــرماس " الخطـــاب الحداثـــى " [1] ذلك لأن " قيمة الإجماع أصبحت قيمة مشكوك فيها ... والإقرار بالطبيعة المتنافرة شكلياً لألعاب اللغة هو خطوة أولى فى هذا الاتجاه ..."[2]

من ذلك يؤكد " ليوتار" على أن اللجوء إلى الكلية أو الشمولية مبدأ مرفوض فى كل مجالات المعرفة ، بل أن المعرفة ما بعد الحداثية لا تصبح مشروعية إلا إذا وقـــد نهضت على الاختلاف والتناقض والتعددية فى الرأى والتفكيك والتعديل والتغييـــر " فلتشـــن حرباً على الكلية Totality لتنشط الاختلافات وتنقذ شرف الاسم [أى المعرفة]."

"Let us wage a war on Totality . Let us activite the differences and saveh the honor of the name [The knowledge] " . [3]

ثانياً : الفن من الجميل إلى الجليل

الفن جزء لا يتجزأ من كيان الإنسان فهو ضرورة من ضرورات الحياة الإنســـانية ومجـــال من مجالات المعرفة ، وعنصر من عناصر الثقافة ، لأنه تعبيـــر عمـــا يدور ويحدث داخل الذات وخارجها ، وعلى المرء أن يدرك هذا

---

1) Ibid : P. 65

2) Ibid : P. 66 .

3) Ibid : P. 82 .

العـــالم المحيط به وأن يعبر عنه شفاهة أو كتابة ، رسماً أو صوتاً أو صورة ، وأن يجعل من الفن محوراً يرتكز عليه فى هذا التعبير فيساعده على التواصل الاجتماعـــى والـــتفاعل مع الآخرين " إنه أداة لازمة لإتمام الاندماج بين الفرد والمجموع فهو يمثل قدرة الإنسان غير المحدودة على الالتقاء بالآخرين، وعلى تبادل الرأى والتجربة معهم " [1]

وإذا كان الفن وصف وتعبير عن علاقة الفرد بالمجتمع ، فإنه يبرز آمال وحاجات الإنسان وتطورها فى صيغ متعددة وأشكال متشابهة أو مختلفة ، وأســـاليب متنوعة تؤكد فى مجموعها على وجوده وحريته وترتقى به إلى رسم تاريخه ، وتجعله ينظر إلى مستقبله وتطلعاته بتجاربه الفنية .

فدور الفن – إذاً – دور إيجابى يدفع الإنسان نحو العمل وإلى تغيير واقعـــه وتنويـــر المجتمعات الزاخرة بالصراعات والتناقضات والنزاعات ، ليـــزيل – إلـــى حد بعيد – الفروق الاجتماعية بين طبقات المجتمع الواحد ، ويقرب الهوة بين أفراده ومن ثم " لابد للفنانين Artists والكتاب Writers أن يعودوا إلى حضن الجماعة ، أو يجب على الأقل أن يعهد لهم بمهمة شفاء الجماعة ..."[2]

فالفـــنان لا يمكن أن يكون غريباً أو منعزلاً عن ذاته وعن مجتمعه الـــذى هو جزء منه ، وقد جاء العصر الحديث بتغيرات اقتصادية وسياسية واجتماعية مؤثرة انعكست بدورها على الفكر والفن الإنسانيين ، وتحول فيها الإنســـان إلـــى شئ من الأشياء كالآلات والماكينات التكنولوجية الهائلة التي تديـــر المصـــانع ، فكـــان التشيؤ Reification والاغتراب Alienation

---

(1) فيشر (أرنست) : ضرورة الفن – ترجمة / أسعد حليم – القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1998 – ص 15 .

2) Lyotard (J.F.) : Postmodern Condition – P. 73 .

علامات بارزة اتسم بها ذلك العصر بل أكثر من ذلك تحول العقل النقدي إلى عقـــل أدائي ، لتحقيق مآرب الإنتاج والاقتصاد وزيادة الثروة والربح ورأس المال في ظل نظام رأسمالي مستغل ، وكان للفن نصيب وافر من هذا النظام في كيفية استغلاله للتربح والدعاية والترويج فقط للمنتجات ، وابتعد عن كونه تعبيـــر حر عن طاقات الإنسان ومشاعره وأحاسيسه الطبيعية وقدراته العقلية ومواهبه ، بل وابتعد عن مجتمعه . أما في العصر الحاضر ، عصر ما بعد الحداثـــة – كمـــا يقول " إيهاب حسن " – " أنه عصر يوحي بنمط جديد من الـــتقاء الفن بالمجتمع " [1] " وكذلك تميز الفنانون ما بعد الحداثيين من ذوى الـــرؤى الإيجابية النافذة ... نحو إعادة البناء وتأكيد الوجود ، مشكلين بذلك الوجه الإيجابي في ثقافة ما بعد الحداثة"[2]

فتحول الفنانون إلى توجهات اجتماعية وسيكولوچية وبدأوا يندمجون في لغة العلاقات الإنسانية بفنونهم وآدابهم . أى أن الفن تحول من فن تربحي إلى فن ممكن بالفعل كالكتابة والقراءة ... " [3]

"ذلـــك الفـــن الـــذي يؤســـس بدقة لحظة الإنتاج الفنى ويضع طريقاً من أجل التصنيف" [4]

---

(1) روز (مارجريت) : ما بعد الحداثة – مرجع سابق – ص 65 .

(2) رزبـــرج (نيكولاس) : توجهات ما بعد الحداثة – ترجمة وتقديم / ناجى رشوان – مراجعة / محمد بريـــرى – القاهرة – المجلس الأعلى للثقافة– 2002 – العدد 435 – ص 142 .

3) Lyotard (J. F.) : Toward the Postmodern – Edited by Robert Havey and

Mark. S. Roberts – New York – 1999 – P. 164 .

4) Ibid : P. 169 .

إلى جانب كون الفن تحول إلى فن اجتماعي وإبراز الذات الإنسانية كمحور للتفاعل ، يذهب " ليوتار" Lyotard إلى أن الفن الما بعد حداثى إنما يتم فى اللحظة الراهنة تلك التى يمارس فيها الفنان فنه وعمله الفنى ، سواءً فـــى الشـــعر أو الرســـم أو الموسيقى أو أى شكل من أشكال الفن ، فالفنان يستكشف عمله الفنى دون شروط مسبقة أو قواعد قبلية سابقة على تجربته ، فالحقـيقة أنـــه يصنف إنتاجه ويضع قواعده بنفسه من خلال ممارسة العمل الفنى ذاته وليس من منظور أعمال الآخرين السابقة ، " إن الفنان Artist أو الكاتـــب Writer ما بعد الحداثى فى وضع الفيلسوف ، فالنص الذى يكتبه ، والعمـــل الذى ينتجه لا تحكمهما ، من حيث المبدأ ، قواعد ثابتة سلفاً ، ولا يمكـــن الحكم عليهما وفقاً لحكم قاطع من خلال تطبيق مقولات مألوفة على النص أو العمل . فهذه القواعد وتلك المقولات هي ما يبحث عنه العمل الفنى ذاتـــه . فالفنان و الكاتب ، إذاً يعملان بدون قواعد لكي يصوغا قواعد ما تم عمله بالفعل " [1]

فمـــن شـــروط العمـــل الفنى وقواعده ألا تُصاغ له شروط أو قواعد مسبقة ، إلا أثناء عمل الفنان ذاته ، من ثم يرتقى أسلوب الفن وشكله ونمطه ، ويعطـــى الفـــنان حرية أفضل ، ومساحة أوسع لإظهار أعمال فنية راقية وسامية ومتطورة .

ومـــن الأمثلة التى تؤكد رؤية " ليوتار" Lyotard فى العمل الفني " أن في أعمال الأمريكي " فرانك مالينا Frank J. Malina" تركيبات إضائية أولـــدتها تكنولوچـــيا التوهج الحراري أو الضوء الفلوريسنتى ، والمحركات

1) OP. Cit. P. 81 .

الإلكترونية الصغيرة ، مستكشفاً بذلك مناطق فنية – كما يقول مالينا نفسه – لم توضع لها بعد قواعد جمالية [فنية] " [1]

إذاً تـــوجهات ما بعد الحداثة عند "ليوتار" تتمثل في الالتقاء بين الفنان وفنه بصورة مباشرة فى إطار صيغ يمكنه تحديدها ، والتقاء فنه بالمجتمع ، وتحـــوله إلى واقع ملموس ليس كوسيلة بل غاية تهدف إلى التعبير المخلص عـــن الناس والجمهور، ويوضح ليوتار " أن الخطر الذى يتهدد البحث الفني والأدبي، مرتين، مرة من جانب السياسة الثقافية ، ومرة من جانب سوق الفن والكـــتاب . والنصـــيحة التـــي تقدم ، ... هي تقديم أعمال تكون ، أولاً : منســـوبة إلى موضوعات موجودة في نظر الجمهور الذي نخاطبه ، وثانياً : مصـــنوعة ("جيدة الصنع") بحيث يتعرف الجمهور على الهدف منها بحيث يفهم ما تعنيه ، ويستطيع أن يمنح أو يمنع موافقته عن وعى وإدراك ، حتى يستخلص ، كلما أمكن ، قدراً معيناً من الراحة من تلك الأعمال " [2] من ذلك فإنه ينبغى للعمل الفني أن يعرض على الجمهور مخاطباً مشاعره وأحاسيسه وأذواقه ، ليحدث تواءم أو تلاحم بين الفن والفنان والجمهور دون تدخل من الســـلطة ، سياســـية كانت أو حزبية ، أو اقتصادية تملى شروطها ودوافعها وقراراتها على الفن والفنان.

لقد عرض " ليوتار" سؤالاً فلسفياً عميقاً قائلاً" ما هو الجميل ؟إنه سؤال جمالي ليس مطلوباً وإنما السؤال المطلوب هو ماذا يمكن أن يسمى فناً (وأدباً) ؟ " [3]

---

(1) رزبرج (نيكولاس) : توجهات ما بعد الحداثة – مرجع سابق – ص 98 .

2) Lyotard (J.F.) : Postmodern Condition – P. 76 .

3) Ibid : P. 75 .

إنهـــا فكـــرة توحي بالتحول فى الفن أو تضيف إلى مقتضيات هذا التحول عنصراً

آخـــر يبرز أهمية الفن وطبيعته فى إطار ما بعد الحداثة ، هذه الفكرة تتمثل فـــى "الجليل" Sublime فالعمل الفني ينبغي أن يكون جليلاً لأن الجليل يُعد أسمى درجات الحكم الجمالي ، فهو يعطى الانطباع بالدهشة والرهبة والتقدير لهذا العمل الفني أو ذاك .

وقـــد ســـبق كـــانط Kant – رؤية ليوتار – في التفرقة بين الجميل والجليل في كتابه " نقد ملكة الحكم " بقوله : (" الجمال الطبيعي ينطوي على نمائية صورية تجعل الموضوع منذ البداية ميسراً لملكة الحكم الموجودة لدينا ، فتحـــيله بالتالي إلى موضوع متعة جمالية في ذاته ، فى حين ما يولّد لدينا الإحساس بالإجلال قد يكون بمقتضى صورته سبباً في قيام تعارض بين ملكة الحكـــم عـــندنا ، وما لدينا من مقدرة على التصور ، وبالتالي فإنه قد يكون مصـــدر عســـف وإكـــراه بالنسبة لمخيلتنا ") [1] فالجمال متاح وموجود فى مخيلتنا ومشاعرنا وتصوراتنا ، أما الجليل فقد يعطينا انطباعاً قد يكون ذميماً . (إنـــه يـــولد لدينا ضرباً من الاستثارة فى حين تصورنا للجميل يولد لدينا ضرباً من السكينة " سكينة التأمل") [2]

مـــن ناحية أخرى فإن "كانط" Kant أكد على أن الجليل لا يكمن فى الطبيعة بل فى أذهاننا وذواتنا ولا نشعر به إلا إذا تفوقنا على الطبيعة داخلنا

---

1) Kant (E.) : Critique of Pure Reason – Trans by N. Kemp Smithe – London–1950–P.P.75–76 .

- أنظـــر : د. زكريا إبراهيم : كانط والفلسفة النقدية – القاهرة – مكتبة مصر – 1972–ط 2–ص 243

(2) د. زكريا إبراهيم : كانط والفلسفية النقدية – نفس المرجع السابق – ص 245 .

" إنـــه – عند كانط – يَعد الروح لكي تفكر في استحالة التوصل إلى الطبيعة بصفتها موضوعات معرفة الأفكار ") [1] " إنه [أي الجليل] يتضمن نمائية لا نمائية ولذة لا لذة ") [2]

الجليل – إذا وكما يعتقد الباحث – يتمثل داخل الذات ، أما الجميل يعبر عـــن خارجها ، الجليل فكرة نابعة من العقل والوعى ، أما الجميل شعور نابع مـــن الإحســـاس والشعور ، وكليهما لا يعبر إلا عن الخير ، الأول فى دهشة ورهبة والثانى فى لذة ملموسة ، ويذكر نوريس Norris – أيضاً عن الجليل " بأنه أفضل ما يحدده هو لا تحدده ، اللاشكل ، اللانهاية " [3] أى أنه غير محدد الصورة ، وليس له لذة رغم كونه تعبير عن عمل فنى ، أنه غاية الغايات ولذة اللذات . وقد عرض ليوتار Lyotard رؤيته فى " الجليل " فى مقالته " ما هو ما بعد الحداثة " [4] :

1 – فالجليل ليس فيه تطلع أو حنين إلى ما لا يمكن تقديمه .

2– أنـــه لا يثيـــر الإحســـاس بالســـكينة أو الـــتأمل أو اللذة فى تقديم ما لا يمكن تقديمه .

---

(1) ليوتار (جان فرانسوا) : الحماسة (النقد الكانطى لتاريخ) – ترجمة وتقديم / نبيل سعد – القاهرة –المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومي للترجمة – 2001 – العدد 306 – ص. ص 54 – 55 .

(2) نفس المرجع السابق : ص 55 .

3) Norris (C.) : What Worng with Postmodernism – Johns Hopkins University Press – Baltimore – Mary Land – 1990 – P.P. 217-218

4) Lyotard (J. F.) : The Postmodern Explained – Trans. Edited by Julian Pefanis and Morgan Thomas – Trans. by Don Barry and Others – University of Minnesota Press–Minneapolis–London–1992–P.P.14-15

– أنظر : مارجريت روز : ما بعد الحداثة – مرجع سابق – ص . 75 .

3- أن الجليل يجمع أو يؤلف بين اللذة والألم .

4- أنه يسعى إلى تقديم صيغ جديدة ، لنقل الإحساس القوى بما لا يمكن تقديمه .

5- أنه لا يضيف إلى الواقع ، بل يختلق إشارات أو رموز تتحول إلى تصورات ذهنية تستعصى على التقديم .

إنه بمثابة تحول نحو تقدم الفن لتأثيره على الإنسان تأثيراً قوياً يجمع بين لذته وألمه " اللذة لأن العقل يتجاوز كل تصور ، والألم لأن الخيال لا يكون مكافئاً للمفهوم " [1]

ومن وسائل الجليل ، التأمل ، " فما أحوج المرء لأن يكون رقيقاً حين يتأمل " [2] فرقة الإحساس تحتاج إلى التأمل والخيال ، وهو ما ينبغى أن يتوافر فى الفنان والناقد "

العمل الفني ما بعد الحداثى – إذاً – يقدم أشياءً غائية غير واقعية تستند إلى الإبداع والأشكال الجديدة الجيدة ، إنه عمل غير تقليدي يبحث عن تقديمات جديدة وينقل من خلالها إحساساً وشعوراً قوياً بها .

" إن الجليل هو القادر على إضافة البرهان على أن الإنسانية عاقدة العزم على التقدم نحو الأفضل " [3]

---

1) Lyotard (J.F.) : Postmodern Condition – P. 81 .

2) Ibid : P. 76 .

3) Lyotard : The Differend – Op. Cit. – P. 170 .

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصادر الأجنبية :

1) Lyotard (Jean Francois) : What is postmodernism – University of Minnesota Press – 1984 .

2) Lyotard (Jean Francois) : The Lyotard Reader – Edited by Andrew Benjamin – Basil Blackwell – Oxford- 1989 .

3) Lyotard (J. F.) : The Postmodern Explaine – Trans. Edited by Julian Pefanis and Morgan Thomas . Trans . by Don Barry and Others – University of Minnesota Press – Minneapolis – London – 1992 .

4) Lyotard (J. F.) : Postmodern Condition (A report on Knowledge) – Trans . by Geoff Bennington and Berian Massumi–Foreword by Fredric Jameson – University of Minnesota Press–Minneapolis- 1993.

5) Lyotard (J. F.) : The Differend – Trans . by Gorges Van Abbeele – University of Minnesota Press – 1996 .

6) Lyotard (J. F.) : Toward the Postmodern – Edited by Robert Harvey and Mark. S. Roberts–New York – 1999 .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1) Derrida (J.) : Interview QTD in Vincent B. Leitch : Deconstructive Criticism – London – 1983 .

2) Habermas (J.): Modernity Versus Postmodernity – Trans. by Seyla Ben – Habib – in a Postmodern eader Edited by Joseph Natoli and Linda Hutcheon – State University of New York Press – 1993 .

خاتمة البحث

ما بعد الحداثة Postmodernism تيار أو حركة فكرية ظهرت فى العصر الحاضر لتؤكد أن اللاحق لا يتأتى بدون السابق ، من ثم فهى لم تنشأ من فراغ وإنما ظهرت نتيجة لحاجة الفكر للتجديد ، فإذا كانت الحداثة Modernism سابقاً قد اتخذت من العقلانية المجردة ، والشمولية الكاملة والقواعد المسبقة للعلم والمعرفة والفن ، والهيمنة على الطبيعة بأسلوب علمى بغياً للتعبير والتقدم ، اتخذت من ذلك كله مبادئ تنهض عليها ، فى نفس الآن نجد أن ما بعد الحداثة تجعل من الخلاف والتفكيك والتشكيك والتعددية مبادئ أساسية فى استعراض موضوعاتها .

إذاً ما يعنيه الباحث هنا ، ليس الالتقاء بين التيارين أو رفض الفكر السابق ، وإنما هو استنتاج عن كون الحداثة تمثل منطلقاً جوهرياً فى فكر ما بعد الحداثة رغم مغايرتها للحداثة .

لقد استخدم "ليوتار" – موضع البحث وأحد رواد تيار ما بعد الحداثة – مصطلحات عديدة ، نذكر منها : الميتا–لغة وهى اللغة الشارحة ، التى تتخذ من لغة أخرى موضوعاً للدراسة والبحث وتقرر قواعدها . المشروعية أى صلاحية المعرفة والعلم . الأدائية والكفاءة . الهومولوچيا وهو التشاكل أو التماثل فى التكوين أو الوظيفة بين أعضاء الكائنات الحية لنشوئها من أصل واحد . الخطاب البارولوچى او الهامشى وهو مقياس المغالطة فى المنطق ، ويستخدمه " ليوتار" بمعنى الخطاب الذى يسبب اضطرابات فى العلم والمعرفة . وغيرها من مصطلحات ما بعد حداثية توضح موضوعات هذا التيار .

وقد أمكن للباحث بعد هذه المحاولة فى تحليل أحد التيارات الفلسفية المعاصرة أن يتوصل إلى عدة نتائج ، قسّمها إلى نوعين :

الأولى : نتائج إيجابية وتتضمن :

1- أن " ليوتار" استخدم نظرية ألعاب اللغة – وهو مصطلح استعاره من "فتجنشتين" – وذلك فى إثبات مشروعية المعرفة ، وهى نظرية تقوم على الاختلاف والتناحر أو التناقض ، ومن ثم فإنه ينبغى لتحقيق تحولات ما بعد حداثية فى المعرفة والعلم والأدب والفن ، أن تتغير لعباتها أى قواعدها وبالتالى إحداث ابتكارات مستقبلية جديدة .

2- الاهتمام بالأبحاث العلمية ليس لتدعيم السلطة أو القرار السياسى بل من أجل البحث ذاته عن المعرفة الصحيحة أو المشروعة ، وقد أوضح " ليوتار" ذلك على الرغم من إشارته للدور الفاعل للدولة فى تمويل البحث العلمى بهدف ربط البحث العلمى بالتكنولوچيا والمجتمع فى إطار نظام رأسمالى حر .

3- اهتم " ليوتار" بدور التعليم وذلك بربطه بسوق العمل ، وبالتالى دعا إلى تأهيل الشباب مهنياً إلى جانب إكسابهم المعلومات والمعارف واللغات ، لأن لإنسان ما بعد الحداثى هو إنسان المستقبل .

4- ربط " ليوتار" المعرفة بالمجتمع لتحقيق رابطة اجتماعية بين أفراده والارتقاء بالعلاقات الإنسانية .

5- تعد " الأدائية " من أهم عناصر نظرية ألعاب اللغة لأن دورها محورى فى تحقيق مشروعية المعرفة والعلم . إنها الفاعلية والتأثير المنتج فى تحقيق ارتقاء الإنسان ممثلاً فى علمه وثقافته ومعارفه .

6- أن الخطاب الحداثى اقتصر على النقد وشمولية التفكير فى كل المجالات كالسياسة والعلم والفن والاقتصاد ، وغيرها ، أما فى تيار ما بعد الحداثة فقد تحول الخطاب [التفكير] إلى خطاب بارولوچى أو هامشى لا يجعل من القواعد والشروط المسبقة قواعد مفروضة على كل أنواع المعرفة

7- تحـولت المعرفة فى إطار تيار ما بعد الحداثة من معرفة حكائية سردية قصصـية إلى معرفة علمية تتواءم مع التطورات التكنولوجية ووسائل الاتصال .

الثانية : النتائج السلبية :

1- أن تـيار ما بعد الحداثة رفض الخطاب الميتافيزيقى فى تناول المعرفة والبحث العلمى .

2- أنـه رفـض أسلوب السرد والقصص والأساطير لأنها أساليب بالية لا تـتواءم مـع تطـورات العصـر ، ومن ثم رفض الرجوع أو الاستناد إلى الماضـى أو الـتاريخ فى تناول المعرفة . على الرغم من أن التاريخ ذاته جزء مكون لكيان الإنسان ووجوده ووحدته .

3- رفض الاستناد إلى الفروض والقواعد المسبقة فى عمل الباحث او العالم أو الفنان . على الرغم من أن كل ظاهرة اجتماعية أو طبيعية أنما تحتاج فى تحلـيلها وتـركيبها إلـى تاريخ أو مرجع تاريخى يؤصلها ويوضح ماهيتها لينطلق الباحث أو العالم أو المفكر إلى تكوين ووضع رؤية مستقبلية لها

4- رفـض " ليوتار" مفهوم الشمولية أو الكلية Totality – الذى اتخذه تيار الحداثـة من قبل – والبديل هو تعددية الفكر والمعرفة ، والاختلاف مع كـل المـذاهب والنظـريات السابقة ، حتى يمكن الوصول إلى توليد أفكار ومعارف جديدة .

5- استخدم " ليوتار " – بطريقة مباشرة أو غير مباشرة – أسلوب التخويف أو لـرهبة أكثـر مـن مـرة ، أولها : فى ترهيب الدولة أو السلطة للعلماء والباحثين لإنتاج معارف تتوافق مع قراراتها وأهداف نظامها .

والثانى فى الفن : حين استعار لفظ " الجليل " بدلاً من الجميل فى الحكم علـى العمل الفنى ، فالجليل – كما يرى – يدل على الرهبة والدهشة ، وقد يدل على الإكراه ، والانفعال ، .

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصادر الأجنبية :

1) Lyotard (Jean Francois) : What is postmodernism – University of Minnesota Press – 1984 .

2) Lyotard (Jean Francois) : The Lyotard Reader – Edited by Andrew Benjamin – Basil Blackwell – Oxford- 1989 .

3) Lyotard (J. F.) : The Postmodern Explaine – Trans. Edited by Julian Pefanis and Morgan Thomas . Trans . by Don Barry and Others – University of Minnesota Press – Minneapolis – London – 1992 .

4) Lyotard (J. F.) : Postmodern Condition (A report on Knowledge) – Trans . by Geoff Bennington and Berian Massumi–Foreword by Fredric Jameson – University of Minnesota Press–Minneapolis- 1993.

5) Lyotard (J. F.) : The Differend – Trans . by Gorges Van Abbeele – University of Minnesota Press – 1996 .

6) Lyotard (J. F.) : Toward the Postmodern – Edited by Robert Harvey and Mark. S. Roberts–New York - 1999 .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1) Derrida (J.) : Interview QTD in Vincent B. Leitch : Deconstructive Criticism – London – 1983 .

2) Habermas (J.): Modernity Versus Postmodernity – Trans. by Seyla Ben – Habib – in a Postmodern eader Edited by Joseph Natoli and Linda Hutcheon – State University of New York Press – 1993 .

3) Hassan (Ehab) : The Postmodern Turn (Essays in Postmodern Theory and Culture) – Ohio State University Press – 1987 .

4) Huyssen (Andreas) : After the Great Divide – Modernism , Mass Culture Postmodernism – Indiana University Press – 1986 .

5) Kant (E.) : Critique of Pure Reason – Trans . by N. Kemp Smith – London – 1950 .

6) Norris (Christopher) : The Deconstructive Turn – London – New York – 1983 .

7) Norris (C.) : What's Wrong with Postmodernism – Critical Theory and the Ends of Philosophy – The Johns Hopkins University Press– Baltimore Mary Land – 1990 .

8) Pippin (Robert B.) : Modernism as a Philosophy Problem – Basil Blackwell – Oxford – 1991 .

9) Readings (Bill) : Introducing Lyotard Art and Politics – Routledge – London – New York – 1991 .

ثالثاً : المصادر المترجمة للعربية :

– ليوتار (جان فرانسوا) : الحماسة (النقد الكانطى للتاريخ) – ترجمة وتقديم/ نبيل سعد – القاهرة – المجلس الأعلى للثقافة – 2001 – العدد 306 .

رابعاً : المراجع المترجمة للعربية :

1– براد برى (مالكوم) : الحداثة – ترجمة / مؤيد فوزى حسن – حلب – مركز الإنماء الحضارى للدراسات والترجمة والنشر – 1995 – ط2 .

2– تورين (آلان) : نقد الحداثة – ترجمة / أنور مغيث – القاهرة – المجلس الأعلى للثقافة– المشروع القومى للترجمة– 1997– العدد 38 .

3- رزبـــرج (نـــيكولاس) : تـــوجهات ما بعد الحداثة – ترجمة وتقديم / ناجى رشوان- مراجعة/ محمد بريرى – القاهرة – المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومى للترجمة – 2002 – العدد 435 .

4- روز (مارجـــريت) : مـــا بعـــد الحداثـــة (تحليل نقدى) – ترجمة / أحمـــد الشامى – القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1994 – الألف كتاب الثانى – العدد 153 .

5- ســـبيڤاك (جايتـــريا) / نـــوريس (كريستوفر) : صور دريدا (ثلاث مقـــالات عـــن التفكـــيك) – تـــرجمة / حســـام نايل – مراجعة وتقديم / د. ماهـــر شفيق فريد – القاهرة – المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومى للترجمة – 2002 – العدد 319.

6- ستروك (جون) : البنيوية وما بعدها (من ليڤى شتراوس إلى دريدا) تـــرجمة / د. محمـــد عصـــفور –الكـــويت – المجلـــس الوطنـــى للـــثقافة والفنون والآداب – عالم المعرفة – 1996 – العدد 206 .

7- فيذرستون (مايك) وآخرون : محدثات العولمة – ترجمة / عبد الوهاب علـــوب – مـــراجعة وتقـــديم / د. جابـــر عصـــفور – القاهرة – المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومى للترجمة –2000 – العدد 93.

8- فيشـــر (أرنست) : ضرورة الفن – ترجمة / أسعد حليم – القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1998 .

9- ويليامـــز (رايمـــون) : طـــرائق الحداثة (ضد المتوائمين الجدد) – تـــرجمة/ فـــاروق عـــبد القادر – الكويت – المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – عالم المعرفة– 1999 – العدد 246.

خامساً : المراجع المؤلفة بالعربية :

1- د. زكريا ابراهيم : كانت أو الفلسفة النقدية - القاهرة - مكتبة مصر - 1972 - ط2 .

2- د. عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك) - الكويت - المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - عالم المعرفة - 1998 - العدد 232.

3- د. محمد على الكردى : من الحداثة إلى العولمة - الاسكندرية - الملتقى المصرى للإبداع والتنمية - سلسلة الدراسات الفكرية والفلسفية - العدد الأول - 2001 - ط1 .

سادساً : الموسوعات الأجنبية :

- Encyclopedia of Philosophy - Supplement Macmillan - New York - 1996 .